

التكتيك العسكري لعبد المؤمن بن علي الجزائري في توحيد بلاد المغرب الإسلامي

The military tactic of Abdelmoumen Ben Ali El Jazaïri in unification the Islamic Maghreb.

منصورية قدور

جامعة غليزان (الجزائر) mansouria.kaddour@univ-relizane.dz

تاريخ النشر: 2023/06/17

تاريخ القبول: 2023/06/02

تاريخ الاستلام: 2021/09/18

ملخص:

لا يمكن إنكار الدور الأساسي لعبد المؤمن بن علي الجزائري في قيام الدولة الموحدية، واستقرارها وتوسعها وتنظيمها وإعلاء شأنها، نتيجة الدعوة التي أقامها المهدي بن تومرت السوسي المغربي وأودعها لتلميذه عبد المؤمن بن علي، حيث قضى هذا الأخير ما يزيد عن عقد من الزمن في صحبته ويمهد له الأمر منذ أن لقيه بملالة قرية بجاية في الجزائر، وبعد توليه الخلافة الموحدية سنة 524هـ-1130م، تمكن من إحراز انتصارات عسكرية كبيرة على خصومه من القبائل والمرابطين وذلك نتيجة دعم قومه من قبيلة كومية بإمداد جيشه وتعزيز قواه وجعله لا يخشى العدو، بالإضافة إلى حنكته العسكرية في القضاء على الدولة المرابطية.

كلمات مفتاحية: عبد المؤمن بن علي، الجزائر، بلاد المغرب، التكتيك العسكري، قبيلة كومية.

Abstract:

We Can not ignore the principal role of Abdelmoumen Ben Ali and his efforts contributing in the fondation, expansion ,stability and organization of the El Mohade country because of El Mehdi Ben Toumert E'ssousi El Maghrebi 's call learnt to his student Abdel Moumen Ben Ali ,this last was with him for a decade to learn and benifits from his experience since their meeting in Mellala,a small village in Béjaïa.

After Abdelmoumen Ben Ali became a caliph of El Mohade country in 524h/1130 ,he obtained a big military victory against his adversaries kabyles and Moravids because of the help ans reinforcement of koumien tribe,in addition of his miltary experience used to eliminate the properties of El Moravid state

Keywords: Abdelmoumen Ben Ali; Algeria; Maghreb; the military tactic; koumien tribe.

1. مقدمة:

ظهرت دعوة المهدي بن تومرت المناهضة للمرابطين في أوائل القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر ميلادي، ومرَّ تأسيس دولة الموحدين بمرحلتين، أولها مرحلة أبي عبد الله محمد بن تومرت السوسي المغربي من سنة 515هـ/1121م إلى 524هـ/1130م، وأسس ابن تومرت دعوته على أساس ديني قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكد تأكيداً قوياً على النظرية الإسلامية بشأن المهدي وظهوره وعصمته، وعلى أساس قبلي وهو الصراع بين القبائل البربرية، قبيلة لمتونة (المرابطين)، وقبيلة هرغة من مصمودة (الموحدين)، واتخذ محمد بن تومرت حصن تينملل بالمغرب الأقصى مقراً له ولدعوته، أمّا المرحلة الثانية فقد كانت بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي الجزائري من 524هـ/1130م إلى 543هـ/1149م، والتي توجت بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين من خلال معارك دامية قامت بينهما. وفي هذا الصدد طرح الإشكالية: فيما تجسدت جهود وخطط عبد المؤمن بن علي العسكرية لمواجهة الجيش المرابطي وتوحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة؟.

2. مفهوم التكتيك العسكري من خلال الكتابات التاريخية:

إنَّ تناول موضوع التكتيك العسكري لعبد المؤمن بن علي في إطاحته بدولة المرابطين ومواجهة النورمارديين وتوحيد بلاد المغرب تحت راية واحدة لأول مرة، يفترض منهجياً تقديم أولي تحدد بموجبه المقاصد الفكرية والعلمية لمفهوم التكتيك العسكري، ومن هذه التعريفات يقول كلاوز فيتر: "إنَّ التكتيك هو نظرية استخدام القوات المسلحة في الاشتباك"، أمّا ليدل هارت فيعرفه بقوله: "عندما يؤدي استخدام وسائل الحرب إلى معركة حقيقية، فإنَّ الاستعدادات التي تتخذ لإعداد مثل هذا العمل وتنفيذه تشكل ما يسمى بالتكتيك"، بينما ماوتسي تونغ فيقول: "إنَّ دراسة القوانين الموجهة للحرب، والتي تتعلق بأوضاع الحرب الجزئية، فهي مهمة علم الحملات وعلم التكتيك"، ويقدم الجنرال اندريه

تعريفه الخاص فيقول: "إنَّ التكتيك هو فن استخدام الأسلحة في المعركة للوصول إلى المردود الأقصى"، أمَّا دائرة المعارف البريطانية فتعرفه بأنه: "فن وعلم خوض المعارك، وهو يتعلق بكيفية مواجهة الاشتباك"، وكيفية توزيع القوات واستخدام مختلف الأسلحة، وتنفيذ التحركات اللازمة للهجوم أو الدفاع" (مجموعة مؤلفين، دت: 294).

وباستقراء هذه التعريفات المتعددة للتكتيك، يتضح أنَّها تتفق في مجملها على نقطة أساسية، وهي حصر التكتيك في عملية الاشتباك في المعركة، سواء من حيث الإعداد المباشر لهذه الاشتباكات القتالية، أم من حيث التنفيذ العملي، كما أنَّ كلمة التكتيك تعني في المعجم العسكري "الأساليب أو الطرق العامّة التفصيلية المستخدمة لإنجاز مهمة ما" (محمد عادل عشناوي، 2009: ص 294).

3. التعريف بعبد المؤمن بن علي الكومي ولقائه بابن تومرت:

1.3 نسبه ومولده:

يذكر المؤرخ ابن أبي زرع الفاسي الذي يتتبع هذا النسب فيقول: "هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى بن مروان بن نصر بن عامر بن الأمير بن موسى بن عون الله بن يحيى بن ورزايع بن صنطور بن ندور بن مطماط بن هود بن مادغيس بن بربر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان" (ابن أبي زرع علي الفاسي، 1972: ص 180).

وقيل أنَّ عبد المؤمن كان يقول: "لست من كومية وإنَّما نحن من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ولكومية علينا حق الولاية وهم الأخوال" (مؤلف مجهول، 1997: ص 142)، وذلك حين ضمَّ فرساناً من القبائل العربية الهلالية ضمن جند الدولة أثناء حركة الجهاد في الأندلس ليضمن ولائهم أكثر ادعى النسب العربي (عبد الواحد المراكشي، 2006: ص 139)، يتصل نسب عبد المؤمن بن علي بقبيلة كومية، كان مولده في قرية صغيرة تسمى تاجرة تقع على بعد ثلاث أميال من مرسى هنين سنة 487هـ/1092م (عبد الواحد المراكشي، 2006:

ص148) بالساحل التلمساني، وكانت وفاته في شهر جمادي الثانية 558هـ/1165م برباط الفتح في الأندلس ونقل إلى تنملل ودفن بباب قبر المهدي (صالح بن قربة، 1991: ص6)، نشأ عبد المؤمن منذ طفولته محباً للقراءة والكتابة، حفظ القرآن الكريم وألّم بشيء من السيرة النبوية، بعد أن شب عبد المؤمن ارتحل في طلب العلم فنزل في تلمسان وأخذ العلم عن مشايخها ثم دفعه طموحه في طلب العلم إلى الرحيل نحو المشرق للدراسة والتحصيل (عبد الرحمان ابن خلدون، د ت: ص. ص 128-129).

2.3 لقاء عبد المؤمن بن علي بالمهدي بن تومرت:

خرج عبد المؤمن من قريته بصحبة عمه "يعلو" بقصد السفر إلى المشرق من ميناء بجاية وبها نزل في مسجد الريحانة الذي سمع فيه بأمر الفقيه السوسي ابن تومرت ذكر المؤرخون أنّ المهدي اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رياح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب⁽²⁾ من أهل السوس⁽³⁾ ولد و ترعرع في قرية صغيرة تقع في المشارف الشمالية الأطلس الصحراوي في اتجاه واد السّوس تسمى "إيجلي أن" من قبيلة تسمى هرغة⁽⁴⁾ من قوم يعرفون بـ "إسرغين" وهم شرفاء المصامدة⁽⁵⁾.

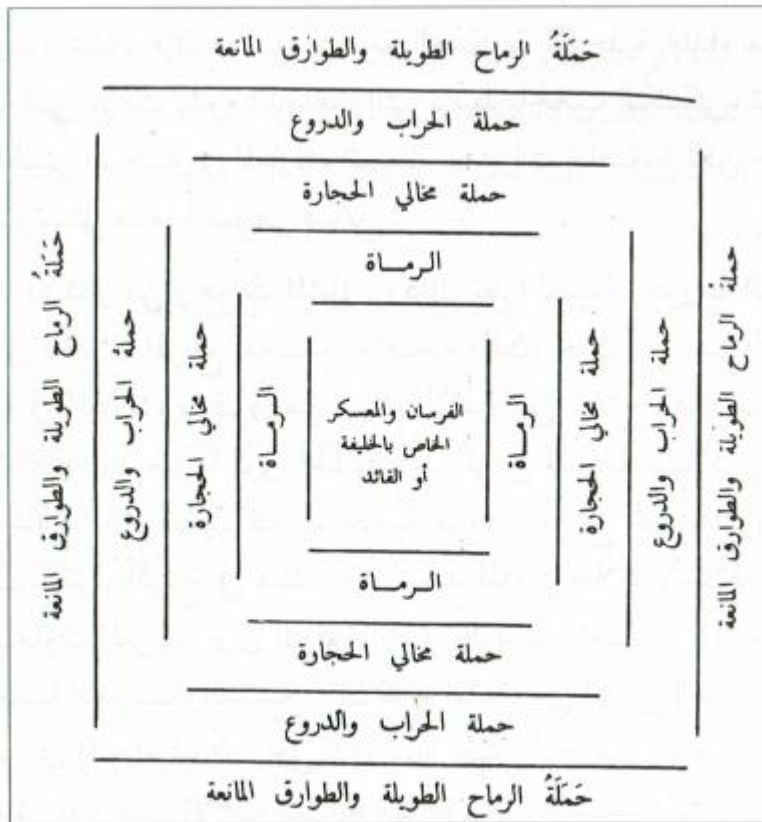
فتوجه إلى ملالة أين يقيم هذا الأخير (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: ص33 / مؤلف مجهول، 1997: 111-112 / عبد الله علام، 2007: 88)، وجلس عبد المؤمن يستمع إلى دروسه وهناك استطاع الفقيه إقناعه بالإقلاع عن السفر نحو المشرق فبايعه عبد المؤمن على مؤازرته وارتحل معه إلى المغرب، لقد كان عبد المؤمن حذقا في العلم ممّا جعل الإمام يآثره من الخصوصية والقرب، كما يعتبر من العشرة الذين بايعوه ودعوا الناس لبيعته (ليفي بروفنسيال، 1990: 258-259)، لقد عمل ابن تومرت على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده أتم الإعداد للقيادة والزعامة.

4. الأساليب التكتيكية العسكرية لعبد المؤمن بن علي في مواجهة المرابطين:

كانت مهمة عبد المؤمن بن علي بعد تولية الخلافة الموحدية سنة 524هـ-1130م (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 60-64 / ابن أبي زرع، 1972: 186 / ابن صاحب الصلاة، 1987: 429) صعبة للغاية، إذ كان منحصرًا في جبال الأطلس الكبير على رأس جماعة اضطربت عليه بعد موت ابن تومرت ورغم ذلك استطاع بمهارته إخضاع تلك القبائل وانتزع الأمر من المصامدة قوم ابن تومرت قبل أن يخوض غمار الحروب ويقضي على دولة المرابطين ويضم بلاد المغرب تحت راية الموحدين، ولم يكن هذا الأمر بالسهل خصوصًا وأنه ذاق مرار الهزيمة حين هاجم مراكش أيام المهدي، ولقد كانت حروب عبد المؤمن ضد المرابطين في البداية بمنطقة السوس عبارة عن حروب قبلية لا ترقى إلى مستوى الحرب المنظمة (صالح بن قربة، 1991: 35) وبدأت تحركاته بتركيز سلطته على الأطلس الكبير معتمدًا على طريق الجبال، بدأت حركته بإتباعه طريقة حربية محكمة كانت تتضمن خطتين رئيسيتين: أولهما تنحصر في ملازمة الجبال والاعتصام بها، الأمر الذي كانت تقتضيه قلة العتاد الحربي والخيال، بينما كان المرابطون يلزمون السهول لوفرة خيلهم وعتادهم وجنودهم، والخطبة الثانية كانت ترمي إلى الابتعاد عن مراكز قوة المرابطين وعن عاصمتهم قدر الإمكان والتوغل في بلاد المغرب الأوسط التي يصعب فيها تموين الجيش وتنقله (عبد الحميد حاجيات وآخرون، دت: 304).

كما إعتد عبد المؤمن في تحقيق أهدافه على الحزم والشدة، وعرف ببراعته في وضع الخطط العسكرية، واتبع أسلوب التموية العسكري في الحرب، وإستدعائه للولاء والطلبة والقضاء في الأماكن التي يمر بها بغية دراسة الأوضاع فيها، وكان يخلي المارة ويأمر بحفر الآبار لجمع المياه، ودائمًا يرافقه أصحاب المهن في جيشه، فعند إستراحته يكون قد شكل مدينة فيها مختلف العناصر ويحرص على واء جيشه والطاعة التامة (ابن أبي زرع، 1972، ص 193).

كما نسب إلى عبد المؤمن ابتكار خطة حربية جديدة، تعرف باسم خطة المربع الموحد أو الخطة التربيعية في الحرب واشتهرت كطريقة قتالية فيما بعد وأصبحت عماد خطط الدفاع الموحد في الميدان المكشوف، أي في الأرض المستوية، فهي عبارة عن أربعة صفوف، ف كل جهة من الجهات الأربع الأصلية، وفي قلب هذا المربع يستقر القائد أو الخليفة، وتحيط به مجموعة من الفرسان، وكان لكل قسم من الجيش الذي يؤلف جانبا من الزوايا الأربع، قائدا خاصا، فالمتطوعون والترك والروم يختلون الصفوف الأمامية، وجند الأندلس في الميمنة، والعرب والمصامدة وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية في الميسرة، بينما الفرسان يتلون القلب برئاسة القائد أو الخليفة (أحمد البسييري، 2016). والمخطط الآتي يوضح ذلك:



خطة المربع الموحد الحربية في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي

5. مراحل توحيد بلاد المغرب الإسلامي وجهود عبد المؤمن بن علي الكومي:

1.5 الاستلاء على تلمسان ووهران:

ابتداء من سنة 535هـ/1149م خرج عبد المؤمن بن علي من تينملل على رأس جيش كبير متوجها نحو المغرب الأوسط (أحمد بن عذاري المراكشي، 1983: 99 / عبد الواحد المراكشي، 2006: 151 / ابن خلدون، دت: 231)، متبعا أسلوبه العسكري في الإعتماد على الجبال الوعرة والمتوفرة على الخيرات من فواكهها وخضرها لضمان المؤونة للجيش أثناء سير الحرب، فأطاعته غمارة بشمالي المغرب، وانضمت مسوفة إلى الموحدين، عرج عبد المؤمن في طريقه على مدينة سبتة وحاول إخضاعها لكنها استعصمت، الأمر الذي دفعه إلى تركها مواصلاً مسيرته شرقاً إلى جبال غياثة وبطوية حيث فتحها ثم مضى إلى بلاد ملوية وتمكن من إخضاعها ومن هناك واصل زحفه إلى زناتة التي تم السيطرة عليها إضافة إلى قبائل مديونة مواصلاً توسعته نحو الشرق، معتصماً بجبال الأطلس حيث أطاعته معظم القبائل الجبلية.

أطلق عبد المؤمن جيشه من الجبال صوب تلمسان فجرت عدة اشتباكات مع جيش المرابطين انتهت بهزيمة القوات المرابطية، الأمر الذي زاد من ثقة عبد المؤمن، الذي جمع في الجبال المؤن بينما كان المرابطون يعانون أيماً عناء، حيث أجبر الأمير تاشفين المرابطي على حرق الأكواخ والخيام والسروج ليتدفأ بها الجيش، وفي تلك الأثناء كان عبد المؤمن يخرج من معاقله بالجبال بين فاس وتلمسان ويلحق بالمرابطين أعظم الخسائر (يوسف أشباخ، 2014: 203)، فرّ تاشفين بن علي مع بقايا جيشه إلى قلعة تلمسان ولكن عبد المؤمن تبعه إليها وذلك في 539هـ/1145م فقتل الأبتور قائد جيش النصاري ومعظم جيش المرابطين ونجح في دخول تلمسان، لما أحس تاشفين بن علي بالخطر الذي يهدده في تلمسان تراجع إلى وهران (يوسف أشباخ، 2014: ص203)، لكن الموحدون تبعوه إلى هناك فحاصروه بحصنها وأشعلوا النيران على باب الحصن، حاول تاشفين بن علي الخروج بفرسه من الحصن وكان الليل فتردى به

فرسه من حافة الجبل، ومات في 27 رمضان 539هـ/1145م، قام عبد المؤمن بقطع رأسه وبعثه إلى تينملل ودخل الموحدون وهران بعد أن قتلوا من كان بها من المرابطين، كما أمر عبد المؤمن ببناء سور تآكرارت في تلمسان، وبني مسجدها الجامع (أبي زرع، 1983: 188 / عبد العزيز سالم، 1981: 783).

2.5 الاستلاء على فاس ومراكش:

في الحديث عن استلاء فاس فقد تطلع عبد المؤمن بعد الانتصارات التي أحرزها إلى السيطرة على فاس، فتوجه إليها بحوالي خمسمائة رجل من صنهاجة وخمسمائة رجل من هسورة (البينق، 2007، ص37) حيث استولى في طريقه على أجر سيف المقرمة، ولما علم يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بالصحراوي قائد فاس بقدوم الموحدين خرج لمقاتلتهم، فانهزم الصحراوي وتراجع إلى فاس وفي اليوم التالي نزل الموحدون بعدوة سبو في موضع يقال له عقبة البقر، وفي هذا المكان قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين: قسم بقيادة أبي بكر بن الجبر مع صنهاجة وهسكورة لحصار فاس، أما الخليفة فقد ارتقى مع بقية الجند بجبل العرض وهناك أمر الخليفة جنوده بقطع الأشجار، فقطعت ثم حملت إلى الوادي فسده بها ثم أمر بتحويل مجرى النهر إلى جهة الأسوار وأطلق المياه إلى المجرى الجديد، فجرفت المياه باب السور وهدمته، وغمرت أحياء المدينة (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 90-91)، اضطر القائد المرابطي إلى بناء السور المهدم، وفي هذه الأثناء أرسل عبد المؤمن سرية استطلاعية إلى مكناسة، فخرج إليهم قائدها وقتلهم جميعا باستثناء ثمانية فرسان فلما علم عبد المؤمن بما حلَّ بجيش الفرقة، زحف إلى مكناسة بجيش ضخم أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس، فاستولى على مكناسة ما عدا تجرارت.

ولما طال الحصار على أهل فاس خرج أبو محمد الجياني والي فاس خفية إلى أبي بكر بن الجبر واتفق معه على أن يفتح له أبواب فاس، وفي الصباح فوجئ الصحراوي برؤية الموحدين على السور يوم 14 ذي القعدة 540هـ لكن الصحراوي استطاع الهروب من قبضة

الموحدين إلى الأندلس وهكذا أصبحت مدينة فاس تحت حكم الموحدين بعد حصار دام 7 أشهر (لسان الدين ابن خطيب، خطرة الطيف، 2003: 91-92).

وبعد الاستيلاء على فاس توجه عبد المؤمن بجيشه من فاس إلى مراكش تاركًا القائد الموحي أبا زكريا بن يرمو على حصار مكناسة (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 93)، وفي طريقه تلقى بيعة أهل سبتة فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتانة واتجه إلى مدينة سلا التي استسلمت دون مقاومة، ثم استولى على قصبة الرباط في 17 ذي الحجة 540هـ-1145م وعين عليها الشيخ عبد الواحد الشرقي (أحمد بن خالد السلاوي، د ت: 249) بعدها مضى بعسكره نحو مراكش حاضرة الدولة المرابطية مارًا بتادلة وفيها أمدته قبيلتا هسكورة وصنهاجة بعسكر ضخم هبط بهم عبد المؤمن إلى واد أم الربيع (صالح بن قربة، 1991: 32 / عبد العزيز سالم، 1981: 786) واستولى على أزموور ومنها اتجه إلى جبل اجليز الذي يشرف على مراكش.

كان عبد المؤمن يدرك أكثر من غيره حصانة مراكش التي امتنعت عنه حين أراد اقتحامها في بداية الخلافة، لكن الحال تغير تمامًا فالموحدون يريدون مراكش بعد أن مزقوا قوات الدولة المرابطية في المغرب الأقصى والأوسط وخضعت لهم القبائل، خرج جيش المرابطين من مراكش بقيادة إسحاق بن علي بن تاشفين الذي نصبه المرابطين أميرًا عليهم لمقاتلة الموحدين في 5 محرم 541هـ/1146م انتهت المواجهة بهزيمة المرابطين عند أول لقاء لهم وضيق الموحدون الخناق عليهم حيث استمر الحصار تسعة أشهر، فلما أيقن عبد المؤمن أنَّ روح المقاومة قد ماتت لدى السكان المحاصرين أمر باقتحام المدينة، وفي 18 شوال 541هـ-1146م تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها، وهكذا قضى الموحدون على آخر معاقل المرابطين وبهذا زالت الدولة المرابطية من مسرح الأحداث، وانتهت حرب سبع سنوات وأصبح عبد المؤمن سيد المغرب (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 93).

3.5 الاستلاء على الأندلس:

كان أول جيش أرسله عبد المؤمن إلى الأندلس سنة 541هـ-1147م، وذلك من أجل إزالة ما بقي فيها من سلطان المرابطين، ولعل في مقدمة الأسباب التي دفعته إلى ذلك هو الحفاظ على كيان الإسلام في بلاد الأندلس حيث استولى النصارى على الكثير من الثغور المجاورة (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 94-96 / أحمد بن خالد السلاوي، د ت: 250 / ابن خلدون، د ت: 233/ عبد الواحد المراكشي، 2006: 154) للبلاد، إضافة إلى الحفاظ على كيان الموحدين في عدوة المغرب من أي هجوم مرابطي محتمل من الأندلس، ومما شجعهم إلى التطلع لبلاد الأندلس الدعوات الرسمية والشخصية التي تلقوها من العلماء والحكام المحليين، الذين رحبوا بقدوم الموحدين وفي مقدمتهم علي بن ميمون قائد الأسطول في مدينة قادس(7) وعلى إثر ذلك قرر عبد المؤمن بن علي إرسال ثلاث جيوش عبرت في سنة 541هـ-1146م (لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2006: 265)، وسيطرت على مدينة لبلة وبطليوس وشلب وباجة وبكل سهولة حيث أعلن حكامها الولاء للموحدين، إلا أن المدينة التي امتنعت على الموحدين في غربي الأندلس والتي شددوا عليها الحصار هي مدينة اشبيلية، إلا أن القوات الموحدية اقتحمتها سنة 541هـ-1147م، بعد أن أبيدت بعض القوات المرابطية فيها، غير أن تلك المدن سرعان ما نكثت طاعة الموحدين وحولت الدعوة عنهم ما عدا شريش، وكان هذا التمرد بزعامة مدينة اشبيلية التي انهزمت فيها القوات الموحدية (ابن خلدون، د ت: 235-236)، ولما وصلت هذه الأنباء إلى عبد المؤمن بن علي في المغرب، أرسل جيشا يقوده يوسف بن سليمان، الذي نزل في اشبيلية بعد أن أخضعها واستطاع إعادة السيطرة على معظم مدن غربي الأندلس، كما دخلت الجيوش الموحدية مدينة قرطبة بعد تفاهم وتعاون مع حاكم قرطبة يحيى بن غنية الذي فضل التعاون مع الموحدين من أجل التخلص من خطر الإسبان خاصة ملك قشتالة، وكان ذلك سنة 543هـ-1148م، ومن قرطبة أخذت ترسل سراياها إلى المدن والحصون المجاورة في وسط الأندلس، فسيطرت على مدينة

أبدة وبياسة وأركش وبرشانة ودخلوا مالقة بعد أن ثار سكانها على حاكمها أبي الحكم بن حسون المتعاون مع الأسبان، وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، فحاول يحيى بن غانية إقناع حاكم غرناطة المرابطي بالاستسلام للموحدين، فامتنع بشدة واستمر في عناده حتى سنة 551هـ-1156م، حيث سلم المدينة بعد أن حصل على الأمان من زعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي (عبد العزيز سالم، 1981: 789-791)، وعلى إثر ذلك جار عبد المؤمن من سبتة إلى الأندلس، فعبر البحر ونزل جبل طارق الذي سماه جبل الفتح (عبد الواحد المراكشي، 2008: 156 / لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2006: 265).

4.5 الاستلاء على بقية المغرب الأوسط وإفريقية:

في الوقت الذي كانت فيه القوات الموحدية تبسط نفوذها في الأندلس تفتحت أمامهم جبهة ثانية في المغرب الأوسط والأدنى، وهناك عدة ظروف أدت بهم إلى ضم هذه البلاد التي أوشت حواضرها على السقوط في أيدي النورمانديين.

في سنة 546هـ/1151م توجه عبد المؤمن من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر علناس الحمّادي ببجاية وفي طريقه دخل مدينة الجزائر (8) على حين غفلة فخرج إليه، والذي أعلن الولاء للموحدين (ابن أبي زرع، 1972: 198 / مؤلف مجهول، 1997: 149)، ثم سار عبد المؤمن بجيشه صوب بجاية إذ اعترضته جيوش صنهاجة الحماديون فهزمهم هزيمة نكراء وبذلك دخل الموحدون ببجاية سنة 547هـ/1152م، لينطلق الموحدون نحو قلعة بني حماد ففتحوها عنوة بعد أن استولى عبد المؤمن على بجاية والجزائر والقلعة وقسنطينة، استعمل عليها ابنه عبد الله (أحمد ابن عذاري المراكشي، 1983: 207 / ابن خلدون، دت: 237).

وكان عبد المؤمن في طريقه عائداً إلى مراكش عندما بلغه في متيجة خبر قيام عرب الأثبج ورياح وزغبة في سطيف، بالثورة على ابنه عبد الله وعزمهم على إعادة دولة بني حمّاد، فأرسل إلى ابنه المدد والتقى بهم عبد الله في سطيف حيث ألحق بهم الموحدون هزيمة نكراء انتهت بإعلان خضوعهم لهم، ووفد أعيان وكبراء إفريقية إلى عبد المؤمن طائعين فأكرمهم وأعادهم إلى إفريقية (ابن خلدون، د ت: 237)، وفي إطار توسعات الموحدين نحو الشرق خرج عبد الله بن عبد المؤمن على رأس جيش كبير نزل مدينة تونس سنة 552هـ/1157م، فحاصرها حيث خرج أهل المدينة لملاقاته وانضم لهم عرب من بطون رياح الذين استطاعوا هزم الموحدين، على إثر ذلك كتب عبد الله إلى أبيه يطلب منه المساعدة فخرج أبوه على رأس جيوش لا تحصى في 10 شوال 553هـ/1158م قاصد تونس ففتحها عنوة ثم واصل زحفه إلى المهدية (9) وضرب عليها حصارا دام سبعة أشهر واستطاع دخولها سنة 554هـ/1161م، وفي نفس الوقت بعث عبد المؤمن ابنه لمحاصرة قابس فاستولى عليها كما استولى على قفصة وطبرقة وجبل زغوان وشنقارية، ليعود بعد ذلك إلى مراكش بعد أن قام بإخضاع إفريقية كلها وأصبحت بلاد المغرب من إفريقية شرقاً إلى بلاد السوس الأقصى غرباً إضافة إلى الأندلس موحدة لأول مرة منذ أن افتتحها العرب المسلمون (أبو بكر بن علي الصنهاجي، 2007: 113).

6. الخاتمة:

بعد تولى عبد المؤمن بن علي الكومي الخلافة ومبايعته من طرف المصامدة سنة 526هـ/1132م، عمل على تنظيم جيوشه وإعدادها لغزوة طويلة امتدت سبع سنين من 534هـ/1140م إلى 541هـ/1146م، يقول عنها ابن خلدون: "...وأجمع ابن عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزواته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين ولم يراجع فيها تنمّل حتى انقضت بالفتح والاستلاء على المغربين ...".

وإذا تتبعنا مسيرة عبد المؤمن نجده اتجه من بلاد الريف إلى ساحل تلمسان وبالضبط موطنه ومسقط رأسه تاجرة، فيذكر ذلك البيذق قائلا: "...ثم رحلنا إلى أغبالو متاع بني يزناسن وهرب أهله وامتنعوا أن يوحّدوا، فرحلنا منها إلى ندرومة بلاد كومية فوحّدوا، فرحلنا إلى تاجرا، فميّزنا فيها..."، والمقصود بالتمييز هو استعراض للجيش، يسجل اثناءه أسماء المحاربين.

إنّ الجهود التي بذلها عبد المؤمن بن علي الكومي كللت بالنجاح، وراجع ذلك إلى الخطة التي انتهجها والمتمثلة في القضاء على ممتلكات الدولة المرابطية مسبقا، ثم اقتحام العاصمة مراکش القلب النابض للدولة، وذلك بفضل القوة التي تملكها بعد النجاح على أعدائه المرابطين ابتداء من تلمسان وصولا حتى مراکش، من خلال الاستفادة من سكان البلاد الذين دخلوا في طاعته ومدّته بالمؤن والرجال لتقوية جيشه، وعلى رأسهم قبيلته كومية القاطنة بموطنه، وهذا يدل على عبقرية الرجل وتسييره حسب الظروف والاستفادة منها من خلال التجائه إلى الجبال والاحتماء بها والإغارة على العدو في الوقت المناسب.

ونستطيع القول على ضوء ما سبق أنّ الفضل أساسا في قيام الدولة الموحدية واستقرارها وتوسعها إلى عبد المؤمن ابن علي الكومي الجزائري، الذي كان له دورا كبيرا في تنظيمها وإعلاء شأنها، نتيجة الدعوة التي أقامها المهدي بن تومرت السوسي المغربي وأودعها لتلميذه عبد المؤمن بن علي حيث قضى هذا الأخير ما يزيد عن عقد من الزمن في صحبته ويمهد له الأمر منذ أن لقيه بملاّلة، ولكن ما هو الدافع الذي جعل ابن تومرت يقبل على هذا الفعل؟ هل لأنّه حرم من الولد ورأى في هذا الشاب ذلك؟ أو لأنّه ليس من عشيرته ولن يكون عقبة في ذلك؟ بالإضافة إلى الدور الأساسي لقبيلة كومية في الصراع الموحيدي المرابطي، وكانت مدفوعة للمناصرة والوقوف جانب الموحيدين في مواجهة المرابطين بعصبيتها، وبفضلها تمكن عبد المؤمن من إحراز انتصارات عسكرية وسياسية كبيرة على خصومه من القبائل

والمرابطين، والحصول على بطانة في إرساء أسس وقواعد الدولة، ولما استقام له الحال في ظل خلافته واشتهر سلطانه، جعلها خلافة إسلامية وراثية في عقبه تضاهي أكبر الدول.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- 1 -ابن أبي زرع علي الفاسي، (1972). الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.
- 2 -ابن الخطيب لسان الدين، (2003). خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس 1362-1347، حققها وقدمها أحمد مختار العبّادي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 3 -ابن الخطيب لسان الدين، (2006). أعمال الأعلام في من بوع قبل الاحتلال، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسيال، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- 4 -ابن خلدون عبد الرحمان، (دت). تاريخ ابن خلدون، تصحيح وتعليق تركي فرحان المصطفى، ج6، ط4. لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- 5 -ابن صاحب الصلاة عبد الملك، (1987). المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، ط3. لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- 6 -ابن عذاري المراكشي أحمد، (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ج4، ط2. بيروت: دار الثقافة.
- 7 -أشباح يوسف، (2014). تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

- 8 -الدقر عدنان، (2019). «جواهر العلم في التكتيك». مجلة كلية الملك خالد العسكرية، ع4، ص54.
- 9 -السلوي أحمد بن خالد، (د ت). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد عثمان، ج1، ط1. لبنان: دار الكتب العلمية.
- 10 -العربي إسماعيل، (1980). دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 11 -المراكشي عبد الواحد، (2006). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، ط1. بيروت: شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والتوزيع.
- 12 -بروفنسيال ليفي، (1990). الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- 13 -بن عبد المنعم الحميري محمد، (1975). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان.
- 14 -بن علي الصنهاجي أبو بكر، (2007). أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: وزارة الثقافة.
- 15 -بن قربة صالح، (1991). عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 16 -حاجيات عبد الحميد وآخرون، (د ت). الجزائر في التاريخ: العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج3، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- 17 -سالم عبد العزيز، (1981). المغرب الكبير(العصر الإسلامي)، ج2، بيروت: دار النهضة العربية.
- 18 -عشماوي محمد عادل، (2009). المعجم العسكري، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- 19 -علام عبد الله، (2007). الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، الجزائر: وزارة الثقافة.
- 20 -مجموعة مؤلفين، (د ت). الموسوعة العسكرية، ج1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 21 -مؤلف مجهول، (1997). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمانة، ط1. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.